التركيب المنهجي عند عبد الملك مرتاض

د.علي حمودين / عبد القادر دحدي

جامعة قاصدي مرباح ورقلة

مدخل:

المنهج ليس سلعة نقتني منها ما يناسبنا في عملنا النقدي، بل هو إعادة إنتاج المفاهيم، يستوجب ثقافة وقدرة على التعامل معه، فهو طريقة يسلكها الناقد في قراءة العمل الأدبي، قصد استكناه دلالته، وبنياته الجمالية والشكلية، ورغم الجدل القائم حول المنهج لا يمكننا نفي أهميته وخطورته في نفس الوقت، لأن المنهج ليس مجرد أدوات إجرائية تتداول بين مختلف النصوص الأدبية، فكل منهج قائم على تراكمات فكرية وفلسفية (كل مذهب نقدي هو أصلا، يتركب من جملة مذاهب، كما أن فلسفة لا ينبغي لها أن تنهض إلاّ على فلسفات سبقتها)[12]، ومن هنا تتجلى الخطورة أي الجانب الخفي من المنهج، ثم إن قيمة المنهج تنبع من مقدرة أدواته الإجرائية وصلاحيتها عند عملية التحليل.

يعتبر الباحث عبد المالك مرتاض من النقاد الذين وظفوا عدة مناهج ونظريات من أجل استنطاق الخطابات الأدبية المختلفة وقدموها تقديما يتأرجح بين الدقة والعمق فالذي جعله ينحى هذا المنحنى هو الاضطراب والقلق المنهجي الذي ظل ولا يزال يساوره(... فإنما لكي نبدي شيئا من هذا القلق المنهجي الذي يساورنا...)[13].

إن إشكالية المنهج وهذا القلق الذي يساور الباحث جعله يعود إلى هذه المناهج والأسس في أصولها وجذورها، وتأمل أدواتها الإجرائية في التحليل والتطبيق.

عبد المالك مرتاض و النقد المنهجي:

يعد عبد المالك مرتاض من أكثر النقاد توزعا بين المناهج إنطلاقا من السياقية مرور بالمناهج النسقية منتهيا إلى التركيب المنهجي الذي دعا إليه في كثير كتاباته النظرية وإجراءاته التطبيقية، فهو ينحو هذا المنحنى يوعى كامل من أجل ذلك تجنح التيارات النقدية المعاصرة إلى ما يطلق عليه في اللغة النقدية الجديدة (التركيب المنهجي)[14].

إن هذا الجمع بين أكثر من منهج واحد كالسيميائيات بتياراتها العديدة، والسيمياء واتجاهاتها ومن البلاغة والتراث اللغوي العربي هو ما ميز كتابات عبد المالك مرتاض، وفي كثير من الأحيان جعله عرضة للنقد من طرف النقاد الذين لايرون في التركيب المنهجي إلا عدم الإحاطة بمفاهيم وإجراءات المنهج الواحد.

إن هذا التركيب يعترف به عبد مرتاض في الكثير من تنظيراته النقدية (وقد دأبنا نحن في تعاملنا مع النصوص الأدبية التي تناولتها بالقراءة التحليلية على السعي إلى المزاوجة، أو المثالثة، أو المرابعة وربما المخامسة... باصطناع القراءة المركبة)[15]، وهنا إشارة من الباحث على أن النظرة الأحادية ليس بمقدورها صياغة نظرية شاملة تطبق على النص الشعري بسبب مبادئها النسبية والجزئية وقصورها في التحليل، وهذا ما جعل الباحث(محمد عزام) ينتقد هذا الجمع بين أكثر من منهج واحد (إنَ معظم كتبه

تحمل عناوين فرعية تجمع بين منهجين نقديين هما على الأغلب السيميائي والتشريحي (التفكيكي) لكن مضمونه يخالف عنوانه تماما، فهو بعيد عن التوفيق (أو التلفيق) بين منهجين أو أكثر)[16]فمحمد عزام من النقاد الذين لا يعترفون إلى حد ما بالنظرة الجامعة أو ما يسمى بالقراءة المتعددة، أو التركيب المنهجي لذلك حكم على أعمال عبد الملك مرتاض بأنها مخيبة لأمال القارئ العربي وخياله من أي نقد حداثي منهجي.

لقد سطر عبد المالك مرتاض منهجا يجمع بين عدة مناهج (يبدو من المكابرة الادعاء بأن علما ما بمفرده قادر على الاستقلال بذاته، والاجتزاء بأدواته الإجرائية وجهازه الاصطلاحي، وأسسه المنهجية الذاتية وحدها)[17]، فالنظرة الأحادية عنده مسكونة بروح قلقة ومتوترة بما يطبعها من تجريبية ونسبية وحالات نقص واضحة عنده، وبعدم قدرتها على استنطاق خصوصية النص العربي في سياقه الثقافي الخاص وفي نكهته العربية لذلك يقر عبد المالك مرتاض بعدم جدوى المنهج الواحد(لايوجد منهج كامل مثالي، لا يأتيه الضعف) ولا النقص من بين يديه، ولا من خلفه، وعليه فان (التعصب سلوك غير علمي، ولا أخلاقي أيضا التمسك بتقنيات منهج واحد على أساس أنه وحده، ولا منهج آخر معه جدير أن يتبع)[18].

أراد عبد المالك مرتاض أن يجد نظرية نقدية يزاوج فيها بين ما جاء به النقاد العرب القدامى، وما وصلت إليه الدراسات الغربية في ميدان النقد، فراح ينحت هيكلا من المفاهيم منطلقا من فرضيات لإيجاد قواعد لتفسير الظواهر، وحل مشاكل نوعية في حقل العلم والفكر والفلسفة، مقتحما المرجع اللغوي بصورة المتعددة، وانجاز أعمال نقدية ناتجة عن قراءة متعددة متفردة بأسئلتها ورؤيتها وأدواتها، وبذلك تحولت قراءة عبد المالك مرتاض إلى مسحة من الحداثة هدفها ملء جملة من الفراغات، والحد من سلطة المنهج الواحد، وذلك بالاقتراب من التعدد، وهو تعدد من نوع غير الذي تؤدي إليه الاجتهادات التلفيقية (قد جنحت إلى التركيب المنهجي وذلك لدى قراءة نص أدبي مع الاجتهاد في تجنيس التركيبات المنهجية حتى لا يقع السقوط في التلفيقية)[19] وعليه فهو ينحو هذا النهج التركيبي بوعي كامل أثناء قراءته ولكي يعطي لهذا الطرح قيمة منهجية وعلمية، بمحاولة ربط المعاصر بالقديم، والحداثي بالتراثي رأى أنه (من المكابرة الزعم بأن المعاصرين اليوم، وحدهم هم الذين اهتدوا السبيل إلى إشكالية القراءة السيميائية بكل انجازاتها اللسانية، وبتعدد حقول تأويلاتها المستكشفة والتي ليس لآفاقها حدود)[20] فقد مارس العرب كتابات من حول النص الأدبي منذ فجر التاريخ الأدبي والتي يمكنها أن تشكل بدايات وإرهاصات لقراءة سيميائية.

وظاهرة التركيب والجمع بين المناهج ليست وليدة اليوم، وإنما تعود إلى وقت سابق في تاريخ الشعرية العربية، وقد سبق للباحث(سيد قطب) أن تحدث عنها، ودعا إلى اعتمادها في معالجة النصوص وسماها(بالمنهج المتكامل)، في كتابه(النقد الأدبي: أصوله ومناهجه) وقد رأى أن أهميته تكمن في أنه (أقرب المناهج إلى طبيعة العمل الأدبي)[21].

إلى جانب سيد قطب هناك من النقاد الذين دعوا إلى التركيب المنهجي لاستخراج مزيج منهجي موحد قادر على الإحاطة بالنص من كافة جوانبه، ومن بين هؤلاء وبشكل واضح الناقد محمد مفتاح في كتابه (دينامية النص)، فطغى هذا التركيب على مشروعه النقدي، وطبع ممارسته التحليلية كعمله في كتابه(سيمياء الشعر القديم)، حيث قدم قراءة قصيدة أبي البقاء الرندي (النونية) ونهج نفس الطريق في كتابه تحليل الخطاب الشعري التي حلل فيها (زائية ابن عبدون) من خلال التوفيق بين السيميائيات والتداولية الشعرية.

وفي كتابه (دينامية النص) اتبع القراءة المتعددة واعتمد منهج التركيب أيضا في كتابه (المفاهيم معالم)، ونجد المنهج التركيبي حاضرا وبدرجات متفاوته.

كما نجد الناقد (عبد الله الغدامي) في كتابه (تشريح النص) الذي جمع فيه بين البنيوية والسيميائيات والأسلوبية والتفكيكية.

إن انتصار هؤلاء النقاد للتركيب المنهجي الذي يرون فيه المنهج الرابط بين مناهج عدة تتيح معالجة النص من شتى الزوايا، وليست هذه التركيبة المنهجية بدعًا على النقد العربي فحسب بل(إن التعددية أصبحت تتبع الآن في بعض المدارس النقدية الغربية، ونرى لا حرج في النهوض بتجارب جديدة تمضي في هذا السبيل بعد التخمة التي منى بها النقد من جراء ابتلاعه المذهب تلو المذهب خصوصا في هذا القرن)[22] والواقع أن عبد المالك مرتاض يتمثل المناهج بعين ناقدة، فيستخلص منها ما يحتاجه بعين بصيرة وإدراك ثاقب، فيضيف إليها ما ينقصها، حتى تتلائم مع طبيعة النصوص العربية التي يخضعها للإستقراء والاستنتاج والاستدلال.

إن ميل عبد الملك مرتاض إلى المقاربة النقدية التركيبية دعوة إلى تبنى قراءة احترافية وهي (القراءة، المركبة، المعقدة التي تنهض على جملة من الإجراءات التجريبية والاستطلاعية والإستنتاجية جميعا)[23]و التي بقدر ماتنهض على التناقض تنهض على التناسق والترابط، وعلى إثرها استطاع المزاوجة بين التراث البلاغي القديم، ومعطيات السيميوطيقا الحديثة، وناهضا في خضم ذلك ومعقما لحوار نقدي ومعرفي بين ما أنجزه التراث البلاغي واللغوي والنقدي العربي، وبين ملك التصورات والآليات الحديثة التي تقدمها المعرفة النقدية العربية.

لقد حدد الباحث مشروعه النقدي في النقاط التالية:

1_ العمل على تطوير الأدوات المنهجية تأصيلا وإجراءًا، نقد دَانَ واشفق على محمود أمين العالم فهاله(أنه يتحدث كأنه زعيم حزب سيسي في حملة إنتخابية مصيرية، ينضح بشراسة وقوة عن مبادئ حزبه أمام خصوم ألداء وكأن الشيخ يهاجم البنيوية والحداثة والسيميائية...) اقتنعنا بضرورة تضافر مساعي كل الكفاءات النقدية والعبقرية التنظيرية لمحاولة إيجاد مقاربة منهجية تبتعد ما أمكن عن النقص والخلل)[24].

2_ أهمية التركيب النقدي الجديد وتأصيله في البيئات العربية، ويستدل على ذلك(حيث أن السيميائية= اللسانيات البنيوية+ دراسة الفلكور والميثولوجيا كما ينقل عن غريماس بل إن السيميائية في حقيقتها وريثة اللسانيات البنيوية مقدمة في تقليعة جديدة)[25].

3_ أهمية تحديد عناصر التركيب النقدي الجديد دون إغفال مواءمته للجنس الأدبي(إذا كان النص المحلل من نوع رواية الواقعية الإشتراكية مثلا، فإنه يمكن اصطناع البنيوية التركيبية في تحليله مع إتباع التفكيك كإجراء، إذا كان النص من جنس الرواية الجديدة فيمكن اصطناع البنيوية مع الإستعانة بالسيميائية أداة للفهم والتأويل، والتفكيكية اجراء منهجيا للعمل، وأما إن كان النص شعريا فيمكن اصطناع، البنيوية الليسانية مع محاولة اصطناع التفكيك، وإما السيميائية مع استثمار كل عطاءات التأويلية والرمز والقرينة والإشارة، والمماثل (الأيقونة) والانزياح وكل الإجراءات السيميائية.)[26]

4_ تعذر التحليل العلاماتي لنص طويل نثري أو شعري(لما يتطلب تتبع كل سماته اللفظية من تحليل فرداني، ومزدوج، ومركب، أو جمعي، ونحوي، ومرفولوفي...)[27]، وهذا هو دأب مرتاض في اختيار نصوص قصيرة يسهب في تحليلها مسلطا عليها الأضواء من كل الجوانب.

إن المتتبع للمسار النقدي للباحث عبد المالك مرتاض عبر مراحله المتعددة، وعبر مساراته المتداخلة، يدرك أن الرؤية النقدية لديه، لم تكن سهلة الميلاد، بل مرت عبر مخاض عسير، أين تلاقح التراث العربي بالحداثة الغربية، فهي محصلة طبيعة لثقافة مزدوجة، ووليدة تجارب عديدة في البحث المتواصل، والتحري الدائم، والتجريب والتطوير والتعديل المستمر من اكساب مشروعة النقدي حجة قوية، وبرهانا ينشدان الاقتراب نحو الكمال النسبي.

الإحالات الهوامش:

عبد المالك مرتاض تحليل الخطاب السردي معالجة تفكيكية مركبة لرواية رفاق الدق ديوان المطبوعات الجامعية الجزائر 1995 ص7.

م س ص3

عبد المالك مرتاض تحليل الخطاب الشعري بالاجراء المستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي منشورات اتحاد الكتاب العرب دمشق 2005 ص6.

م س ص6.

محمد عزام – تحليل الخطاب النقدي على الضوء المناهج النقدية الحداثية اتحاد الكتاب العرب دمشق 2003 ص75.

عبد المالك مرتاض تحليل الخطاب الشعري تحليل بالاجزاء المستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي – اتحاد الكتاب العرب 2005 ص6.

عبد المالك مرتاض تحليل الخطاب السيميائي الشعري تحليل بالاجراء المستوياتي القصيدة شناشيل ابنة الحلي – اتحاد الكتاب العرب 2005 ص11.

م س ص6.

التحليل السيميائي للخطاب الشعري تحليل بالاجزاء المستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي – اتحاد الكتاب العرب 2005 ص5.

سيد قطب النقد الادبي أصوله ومناهجه– دار الشروق ط6 1993

عبد المالك مرتاض تحليل الخطاب السردي معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية زقاق المدق دلول للمطبوعات الجامعية الجزائر 1995 ص6.

عبد المالك مرتاض في نظرية النقد (دار هومة للطباعة و النشر والتوزيع الجزائر 2002 ص13)

التحليل السيميائي للخطاب الشعري ، تحليل بالاجراء المستوياتي لقصيدة شناشيل ابنة الحلبي اتحاد العرب دمشق 2005ص11.

وغليسي يوسف الخطاب النقدي عند عبد المالك مرتاض ، رابطة إبداع الثقافة 2002 ص10.

التحليل السيميائي للخطاب الشعري تحليل بالاجراء المستوياتي لقصيدة شناشيا ابنة الحلبي اتحاد الكتاب العرب دمشق 2005 ص13.

عبد المالك مرتاض نظرية القراءة – تأسيس للنظرية العامة للقراءة الادبية دار العرب للنشر و التوزيع وهران 2003ص123.